مُدُن الواحَات في الصّحـراء الكبرى

دراسة لنمط من أنماط النمو الحضري في المناطق الجافة

للدكتور حسّان عوض
أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب
الرباط - المغرب

١ - المقدمة

لا شك أن الصحراء تكون قطاعاً جغرافياً متخلفاً في حياته الحَضَرية . ومع ذلك فالصحراء ليست بخالية تماماً من هذه الحياة ، فقد قامت فيها في كل عصر وزمن نوايا وخليات للحياة الحَضَرية ، ومثال ذلك مدينة بسكرة في الصحراء الجزائرية الشمالية التي كانت قاعدة عسكرية في خطوط الدفاع الأمامية الرومانية . ولما كانت الحياة في الصحراء تخضع خضوعاً شبه تام لظروف الجفاف نجم عن ذلك أن الحياة فيها تكاد تقتصر على المناطق التي يتوافر فيها الماء . وعلى الرغم من أن بعض التجمعات البشرية قامت خارج الواحات الحقيقية ، إلا أنه لا بدّ من أن نعترف بأن الحياة الحَضَرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالواحات التي احتضنت كبريات المدن

والمراكز الرئيسية . فإذا ذكرت الواحات انصرف الذهن إلى الزراعات المروية والحياة المستقرة والقُرى بل والمدن . ففي هذه الجزر الصحراوية ذات الكثافات البشرية الكبيرة نصادف أعظم المدن ذات الطابع القديم الأصيل والمرتبطة بأساليب المعيشة المنبعثة من طبيعة الصحراء وجفافها .

ولا يعني ذلك اطلاقاً أن مدن الواحات تشكل النمط الوحيد للتجمعات الحضرية في الصحراء . فهناك ضروب ومواقع أخرى للاستقرار الحضري تتمثّل في المراكز التجارية التي تقوم عند تقاطع الطُرق والمسارب الصحراوية ، كما تتمثل في مدن الاتصال بين الصحراء ومناطق الحشائش القصيرة (الاستب) في الشمال من جهة ، وبينها وبين مناطق الحشائش الطويلة (السفانا) في الجنوب من جهة أخرى . وقد نعتت هذه المدن بمرافئ الصحراء لقيامها على الهوامش بين منطقتين متباينتين من حيث الموارد الطبيعية والامكانيات الاقتصادية . ومن المدن ما ساهمت الدوافع الدينية إلى إنشائها وازدهارها كمدن إقليم مزاب . وأخيراً وليس آخراً المدن المعدنية ، وهي تجمعات فريدة في نوعها نجمت عن استثمار الموارد المعدنية كما يوحي بذلك اسمها . وقد عرفت هذه الفئة الأخيرة من المدن في العصر الحديث تقدماً منقطع النظير ، وذلك بفضل استغلال خامات الحديد (موريطانيا) والفحم (الجزائر) والفوسفات (تونس والجمهورية العربيـــة المتحـــدة) . على أن البترول (ليبيا والجزائر) كان أقوى المعادن أثراً في خلق مدن جديدة ظهرت تقريباً على دفعة واحدة ، هي تجمعات منعزلة في الفضاء الصحراوي الشاسع ، مكوّنة صورة حَضَرية غريبة عن الوسط الذي تقوم فيه مبانيها العامّة والخاصّة من طـابق واحد ومجهزة بآلات تكييف الهواء ، بها حوانيت ومخازن وفنـادق سياحية ، كما أن بها ملاعب وحدائق وأحواضاً للسباحة .... وكل ذلك لم يكن ليوجد دون تكاليف باهظة . مدن يقطنها الرجال – والشبان من الرجال على وجه الخصوص – دون النساء . وتكون عموماً صورة

حَضَرية ليست من صميم الحياة الصحراوية وإنما هي من مستحدثات العصر .

إن المقام لا يتسع لأن ندرس جميع أشكال العمران في الصحراء . وحسبنا أن نحصر الكلام في مدن الواحات حيث قامت حياة حضرية قديمة جداً قدم الواحات نفسها . على أن هذه المدن تعرضت في الآونة الأخيرة لهزات حضارية اختلفت قوتها من مدينة إلى أخرى . وهذه الهزات هي نتاج عاملين رئيسيين : أولهما الاستعمار ، وثانيهما اكتشاف الثروات المعدنية وعلى الأخص زيت البترول . وقد مس هذان العاملان مدن الواحات بدرجات متفاوتة وصور مختلفة مما كان له أكبر الأثر في الشكل الذي اتخذه تطور هذه المدن . ولا بدّ لنا ونحن نحاول رسم صورة واضحة وضوحاً كافياً لمدن الواحات ان نتجنب الافراط في ذكر صغيرها قليل الخطر كي نركز الحديث بنوع خاص على المدن الواحية الكبرى التي تناولها التحوّر والتغيّر في الآونة الأخيرة .

٢ – التوزيع الجغرافي

يكاد يتفق المشتغلون بالدراسات الصحراوية على التمييز بين ثلاث مراتب للصحراء : الصحارى الحقة الشديدة الجفاف ، والصحارى الجافة وأخيراً الصحارى شبه الجافة . والمقام لا يسمح بالتحدث عن هذا التقسيم والأسس التي بني عليها ، ولا بدّ لمن يطلب المزيد إلى أن يرجع إلى المراجع الخاصة بهذا الموضوع . والصحراء الحقة هي ما يعنينا في هذا البحث . أما فيما يتعلق بحدودها في الصحراء الكبرى الافريقية فقد عينها الأستاذ كابوري بخطّين : أحدهما في الشمال وهو الخط الذي يتّفق

وحدود النخيل الشمالية ، على شريطة أن يصل تمره إلى النضوج الذي يتيح تسويقه بسهولة . والخط الثاني في الجنوب ويتّفق والحدود بين نوعين من النباتات الطبيعية ، أولهما نباتات حولية معروفة باسم الحد ، وهي حشائش ترعاها الإبل في القسم الجنوبي من الصحراء ، وثانيهما نباتات كرم – كرم وتنتشر إلى جنوبها وترعاها الأبقار .

وفي داخل هذه الحدود يتبين من التوزيع الجغرافي لمدن الواحات أن أكبرها حجماً يقع في واحات القسم الشمالي الغربي من الصحراء الذي ينتمي سياسياً إلى الأقطار الثلاثة : تونس والجزائر والمغرب . وهذا الإقليم غني بالواحات الكبيرة الآهلة بالسكّان ممّا دعا بعض الكتّاب إلى أن ينعته بصحراء الواحات . ويؤكد توزيع المدن التي يزيد عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة هذه الظاهرة . فكما يتضح من الخريطة المرافقة تتركز جميع هذه المدن ، وعددها سبع مدن ، في الشمال الغربي . وجميعها – باستثناء توزر الواقعة في الجنوب التونسي – توجد في الصحراء الجزائرية . وفيما يلي جدول لهذه المدن نورده مع العدد التقريبي لسكانها :

مدن الواحات التي يزيد عدد سكانها على ١٠,٠٠٠ نسمة

بسكرة	٥٩,٠٠٠	الواد	١٦,٠٠٠
الأغواط	٢٥,٠٠٠	توغرت	١٦,٠٠٠
غرداية	٢٠,٠٠٠	توزر	١٣,٠٠٠
	ورقلة	١٩,٠٠٠	

فإذا أضفنا إلى هذه القائمة المدن التي يتجاوز عدد سكانها ٥,٠٠٠ نسمة لوجدنا أولاً مدينة آطار (٦,٠٠٠) عاصمة بلاد آدرار ، وهي

المدينة الكبيرة الوحيدة في القسم الغربي من الصحراء . والواحات هنا قليلة الخير يدل مظهرها على الفقر والضنك . ثم إرفود (٥٠٠٠) عاصمة إقليم تافيلالت في جنوب المغرب . وتعتبر مجموعات النخيل هنا من أكبر المجموعات العالمية وأغناها . أما الصحراء الجنوبية ففقيرة في مدنها ، والمدينة الكبيرة الوحيدة هي آجدز (٤٠٠٠) عاصمة الطوارق الجنوبيين ، وهي مدينة أخذت فيها معالم الحياة الحضرية في التدهور بسبب اضمحلال تجارة القوافل بين السودان والصحراء .

فإذا ما انتقلنا إلى النصف الشرقي من الصحراء الكبرى وهو الجزء الذي تحتله الصحراء الليبية فأهم شيء يلفت النظر هو أن الجماعات البشرية هنا قليلة العدد . وأكبر الواحات يوجد في فزان ، وهي منطقة غنية بالمياه ، تقع على أقصر الطرق المؤدية من البحر المتوسط إلى السودان عبر الصحراء . هذا وقد عرفت فزان بفضل موقعها التجاري الممتاز فترات من الرخاء النسبي ، ولكن البلاد تمر في الوقت الحاضر بأزمة خانقة ، حتى أن بعض الواحات يبدو وقد انبث في أرجائها الخراب . ويعود هذا التدهور إلى انقطاع تجارة القوافل واختفائها . وهكذا هاجر السكان من فزان ، وازدادت أمواج الهجرة قوة بانتشار مراكز انتاج البترول في الشمال وجذب هذه المراكز للسكان العاملين . ومدينة مرزق التي كانت عاصمة سياسية لفزان خلال خمسة قرون متصلة فقدت حالياً معظم وظائفها المدينية ، ولم تعد لها الأهمية التي كانت تتمتع بها ، حتى أصبح يتردد في نعتها الآن بالمدينة .

أما الواحات الخمس المتناثرة في الصحراء الغربية المصرية ، وهي سيوة والبحرية والفرافرة والداخلة والخارجة ، فسكانها قليلون . وتنتظم كل منها عدداً من القرى يتراوح عدد سكانها بين بضع مئات من الأنفس

وبضعة آلاف منها . ولئن دلّت آثارها الفرعونية أو اليونانية أو الرومانية على تاريخ عظيم قديم ، فأكبر الظن أن مرد ذلك مواقعها الاستراتيجية كنقط ارتكاز أمامية ومخافر عند الحدود ، أو كمراكز تموين للجيوش التي تمر بها . ولا يعني ذلك بالضرورة أنها كانت أكبر عمراناً بكثير مما هي عليه الآن . هذا وتخرج مصر النيل – أكبر الواحات طراً – من نطاق هذا البحث نظراً لحجمها الهائل وظروفها الخاصة ، مما يجعلها عالماً قائماً بذاته .

٣ ـ القرية والمدينة في الواحات

للمدينة طابع خاص يجعلها تختلف عن القرية من أوجه كثيرة . ويتخذ العلماء أساساً للتمييز بينهما عدداً من المقاييس المختلفة . فمنهم من يتخذ عدد السكان وحده أساساً لهذا التفريق . ومنهم من يتخذ المقياس التاريخي أو الاداري أو المظهر الخارجي قاعدة للتمييز . ولعل التفريق بين القرية والمدينة على أساس ضروب النشاط الاقتصادي التي يمارسها السكان وسيادة بعض الحرف دون البعض الآخر هو أسلم قواعد التمييز . فالملاحظ أنه بينما يعمل السواد الأعظم من سكان المدينة في الصناعة أو التجارة أو الادارة ، أو في كلها جميعاً بنسب متفاوتة ، يعتمد سكان القرية على الزراعة وتربية الماشية . ومن ثم فاختلاف أسلوب الحياة بين المدينة والقرية يستمد جوهره في الصف الأول من نوع الحرف الممارسة . وإذ كان الدارس – استناداً على هذه الاعتبارات والأسس – يتبين بوضوح الفروق بين المدينة والقرية في معظم جهات العالم فان الأمر قد يختلط عليه في بيئة الواحات بسبب تداخل مظاهر الحياة الحضرية والقروية

تداخلاً كبيراً في كثير من التجمعات السكانية مما لا نظير له في بيئات أخرى .

والقرية التي يطلق عليها اسم « القصر » في الواحات تتكون من مساكن متلاصقة مبنية من اللبن . وليست للدُورِ فتحات خارجية باستثناء المدخل . وتفصل مجموعاتها طرقات ضيقة نراها طوراً مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة ، وطوراً آخر ملتوية ولا سيما إذا قامت القرية على نتوء من الأرض أو على سفح تل . والطرقات في العادة مغطاة كي يتقي المارة أشعة الشمس وحرارتها المحرقة . ولا جدال في أن لبعض هذه القرى طابعاً حضرياً يتجلى مظهره في السوق والحوانيت والمسجد ومختلف الصناعات التقليدية بها . وفي ذلك يقول الاستاذ جوتييه : « إن القصر مهما صغر حجمه فهو ليس بقرية وإنما مدينة من الطين الجاف » .

ولئن اتخذت القُرى مظاهر المدن فان لمدن الواحات بدورها بعض ملامح القرى . وكيف يكون الأمر غير ذلك ، وقد نشأت بين النخيل أو على مقربة منه ، وما دام الفلاحون يكونون الفئة الكبرى من سكانها . وليس نادراً أن يجد الانسان زرابي الحيوانات خارج أسوار المدينة فحسب بل يجدها منتشرة أيضاً في أرجائها . ومما يتسم به التخطيط الصحراوي للمدن انعدام الساحات الكبيرة في داخلها إلا فيما ندر ، مما يضفي عليها بعض الصفات القروية . ومع ذلك فالمنازل الحضرية تمتاز عموماً بجودة بنائها وزخرفة واجهاتها وتعدد طوابقها فضلاً عن أن مساجدها أوفر عدداً وأعظم حجماً ، بينما مآذنها أكبر علواً . وفيما وراء هذه المظاهر الخارجية فمن المسلم به أن ما يميز حقاً المدينة عن القرية هو وظائفهما .

والوظيفة الأولى لمدن الواحات هي بالضرورة الوظيفة الزراعية التجارية ما دامت المدينة هو مركز المجتمع الفلاحي كما تمثله الواحة .

ففي المدينة يقوم السوق لتبادل المنتجات الزراعية والحيوانية . على أن وجه الاختلاف بين سوق القرية وسوق المدينة هو أن للأول مواعيد معينة دورية في العادة مرة كل أسبوع . وفي ذلك اليوم تتخذ القرية مظهر المدينة الصغيرة ، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى نشاطها الفلاحي وكيانها القروي بمجرد أن ينتهي السوق . فإذا ما استقر التجار وأصحاب الفنادق حول السوق بقية أيام الاسبوع أكد ذلك المظهر الحضري للمكان الذي يجتذب نحوه أصحاب الحرف الأخرى ومختلف ضروب الخدمات .

ولا يقتصر الأمر في مدن الواحات على تبادل السلع المنتجة محلياً . فمن أسباب ازدهار حياة هذه المدن تجارة القوافل التي كانت تمر بها أو تجد فيها مرفأ لسلعها ولا سيما السلع السودانية التي كانت تتجمع في الواحات أولاً ثم توزع من جديد في مختلف الاتجاهات . هذا وقد أصيبت المدن الواحية بنكسة قوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أثر تحريم تجارة الرقيق التي كانت تعد مورداً أساسياً لها .

ومن أهم المظاهر الحضرية الصناعات التقليدية التي يمارسها عدد لا يستهان به من سكان المدينة والتي لا تقتصر منتوجاتها على خدمة المستقرين من سكان الواحات بل تتعداه إلى خدمة البدو الرحّل أيضاً . على أن بعض الصناعات أصابها الكساد وأخذت أهميتها تخبو رويداً رويداً أمام منافسة بعض الصناعات الحديثة التي استهوت الناس . ومع ذلك فقد احتفظ بعضها بشيء من نشاطه القديم ، وبخاصة الصناعات الجلدية والفخّارية وصناعة الحلي والبُسط . ومهما كان الأمر فان تجمع هذه الوظائف المختلفة يؤدي إلى نوع من التخصص في الأحياء لا نجد له نظيراً في القرى . فهنالك أولاً النواة المركزية التجارية للمدينة والتي تتألف من شوارع تحفّ بها من الجانبين الحوانيت والمتاجر . وكثيراً ما

تتخصص بعض الشوارع في أنواع السلع التي تبيعها . وتتصل بهذا المركز متداخلة فيه أو مستقلة عنه الصناعات التقليدية . وأخيراً تمتد على الأطراف الأحياء السكنية حيث يعيش المزارعون غير بعيد عن حقولهم . وفي هذا ما يدل على مدى الترابط بين كل من الوظائف الحَضَرية والقروية . وهذا الارتباط الكبير بينهما يستمد كيانه من المجتمع الواحي ذاته . وما المدينة هنا إلا صورة للمجتمع ، ولكن هذه الصورة لم تكن واحدة في كل وقت وزمان على نحو ما سنرى فيما بعد .

٤ ـ الاسس الاقتصادية لمدن الواحات خلال الفترة الاستعمارية

الصحراء الكبرى موزعة الآن بين طائفة من الدول المستقلة ، غير أن هذه الصورة السياسية حديثة العهد . فقد كانت الصحراء إلى وقت قريب مجالاً للاستعمار الأوروبي ولا سيما للاستعمار الفرنسي الذي كان يبسط نفوذه على أراض فسيحة شاسعة في النصف الغربي من هذه الصحراء ، حيث تقع في أطرافه الشمالية أغنى واحات الصحراء بالماء والزرع والتجمعات الحضرية الكبيرة .

ومن أهم ما تخلف عن الفترة الاستعمارية من آثار تعزيز الوظائف الحضرية لمجموعة من المدن ، عندما ظهرت فيها الثكنات والقواعد العسكرية أو المراكز الادارية أو كلاهما معاً . فأفراد الحامية المرابطة ينفقون قسماً من مرتباتهم في المدينة ، في متاجرها ومقاهيها وأماكن الترفيه والتسلية بها ، والتي تقوم وترتبط بوجودهم . وتعد مدينة آطار في موريطانيا مثلاً جيداً لمدينة استيقظت من بعد سبات عميق ، وأخذ

يدب فيها النشاط ، على أثر انشاء مركز عسكري بها ابتداء من عـام ١٩٠٩ . واقترن ذلك بظهور مركز اقتصادي حديث مما كان له أثره في انعاش المدينة وإشاعة الحياة من جديد فيها . وبينما استمرت مدينة شنقيط كعاصمة روحية ودينية لاقليم آدرار أصبحت آطار المركز التجـاري الرئيسي . فهي السوق التي تؤمها القبائل البدوية الكبرى ، يفدون اليها لبيع إبلهم وأغنامهم ولشراء السكّر والشاي و « غاز » البترول و .... ومنذ ذلك الحين أصبحت آطار حلقة الوصل بين السنغال من ناحيـة والمغرب من ناحية أخرى ، وزادت أهميتها الاقتصادية والتجارية . وكان من الطبيعي أن تتسع رقعة المدينة ببناء الثكنات العسكرية والنواة التجارية ، ثم بقيـام المباني الحديدة التي نشأت عن تحول أعـداد كبيرة من البدو الرحّل إلى حياة الاستقرار . كذلك ساهمت الوظيفة الحربية بنصيب كبير في نمو مدينتي الأغواط وورقلة حيث بنيت لهذا الغرض مبانٍ فخمة .

وفي العادة يتسع المجال الحضري كثيراً عندما تقوم مدن إدارية حقة إلى جوار القصر القديم ، إذ تجذب هذه الوظيفة إلى المدن وظائف أخرى من أهمها الوظيفة التجارية . ولعل مدينة الواد من خير الأمثلة الـتي تستحق الذكر . وأصلاً لم تكن الواد مدينة بل كانت عبارة عن قرية ، لا تختلف في شيء كثير عن بقية قرى واحات الصوف إن لم تكـن آنذاك أقل تحضراً من بعضها . ولكن منذ أن وقع عليها الاختيار لتكون العاصمة الادارية لهذه الواحات أخذت أهميتها في الزيادة حتى أضحت أكبر المراكز شأناً ، فيها يقيم كبار التجار وعلى الأخص تجار الجملة ، وفيها توجد المكاتب الرئيسية لشركات النقل . وقـد أضفت هـذه الوظائف الادارية والتجـارية على الواد طابعـاً حضَرياً عصرياً ، وامتدت أحياؤها الجديدة صوب الجنوب الغربي حيث تختلط « الڤيلات » والمباني العامة .

ومدينة توغرت في مجموعة واحات وادي الريغ تعبر خير تعبير عن مدينة واحية تعززت وظيفتها التجارية تعزيزاً قوياً بفضل تجهيزات الري للحوض الارتوازي الذي يعد من أكبر الأحواض الصحراوية وأكثرها صلاحية للاستغلال . هذا وقد استحالت مساحات جرداء واسعة إلى حقول وبساتين على أثر تفجّر المياه من جوف الأرض . وبفضل الآبار الدفاقة بالماء أمكن ري حوالي ١٠,٠٠٠ هكتار يشغلها نحو مليون ونصف مليون نخلة . ووادي الريغ هو أكبر إقليم في الصحراء انتاجاً للتمور (٤٠,٠٠٠ طن سنوياً) ، والمنتج الرئيسي للنوع الممتاز المعروف باسم دجلة نور (١٥,٠٠٠ طن) . وتتوسط مدينة توغرت المنطقة الجنوبية ، وهي العاصمة الحقيقية لهذا الحوض . وتمتاز المدينة بنواحي نشاط متعددة ، فهي سوق يومية ، ومصدر كبير للتمور ، ومركز إداري ، علاوة على أنها نهاية خط السكة الحديدية الذي يربطها بعنابة وسكيكدة عن طريق قسنطينة . وقد زودت توغرت مؤخراً بمطار .

والشائع في مدن الواحات أن تأتي الوظيفة التجارية في مقدمة الوظائف . ومن العوامل الهامة في تقوية هذه الوظيفة تقدم طرق المواصلات الحديثة من سكك حديدية وطرق معبدة إلى مسارب أو دروب تربط الواحات بالأراضي الآهلة بالسكان والتي تمتد وراء النطاق الصحراوي ، وكذلك بالموانئ الساحلية التي تقع على مياه البحر المتوسط . وينطبق ذلك على مدينة توغرت ، كما ينطبق على مدينة توزر عاصمة بلاد الجريد في الجنوب التونسي وأكبر منتج ومصدر للتمور التونسية . ومن أقوى أسباب تفوق توزر كسوق تجارية موقعها في نهاية خط السكة الحديدية الذي يربطها بصفاقس . أما بلدة نفطة الموجودة في نفس المنطقة فلم تمتد إليها هذه المواصلات ، وبذلك ظلت قرية ضخمة (١٦,٠٠٠) على الرغم من أنها تضم عدداً من السكّان أكبر مما تضمه توزر .

وتتجلى هذه الوظيفة التجارية في أقوى صورها في مدن مزاب وبوجه خاص في مدينة غرداية العاصمة . وقد اكتسب المزابيون شهرة واسعة من خلال عاداتهم وأسلوب معاشهم ، وهم يدركون أنهم منفصلون متميزون عن سواهم ، وفي ذلك ما يبرر الحديث عنهم بشيء من التفصيل .

يقدر عدد سكان واحات مزاب بخمسين ألف نسمة . وهذا العدد كبير بالقياس إلى امكانيات البيئة الطبيعية وموارد الاقليم . وتروى حدائقهم بصعوبة من آبار يبلغ فيها عمق الماء ٣٠ وأحياناً ٤٠ أو ٥٠ متراً ، وتتم عملية رفع المياه بواسطة الحَرّ الحيواني . وازاء ذلك يضطر المزابيون إلى استيراد الكثير من المواد الغذائية بما في ذلك التمر من خارج واحاتهم . والجدير بالذكر أن مزارعهم وبساتينهم لا تكوّن مورداً غذائياً أو اقتصادياً لهم بقدر ما تشكّل حدائق للترفيه . والظاهرة الطريفة في الاقليم هي أن للمزابي دارين إحداهما في المدينة والثانية في ظلال بساتينه ، مسكن في الحَضَر وآخر في البادية . وتراه يقضّي وجميع أفراد أسرته العام مناصفة بينهما . ويخص المزابي سكنه في البادية بأشهر القيظ (من مايو حتى أوائل ديسمبر) ينشد فيه الراحة والهرب من المدينة . وإذا رغب المزابيون في امتلاك النخيل قصد التجارة والربح لجأوا إلى واحات أخرى غير واحاتهم وبوجه خاص إلى ورقلة القريبة من ديارهم .

وقد قيل في تفسير هذا التناقض الجغرافي بين فقر البيئة وترف السكان عدد من الأسباب التاريخية والدينية والدوافع الاجتماعية . فالمزابيون طائفة من الخوارج الاباضية ، هاجرت من المشرق إلى المغرب . فلما بلغوا أراضي مزاب اتخذوها مستقراً ومقاماً لهم على الرغم من جدبها النسبي ، كي يتّقوا بعزلتهم ما قد عسى أن ينزل بهم من ضروب الاضطهاد إن

هم حلّوا في الجهات الشمالية الغنية . وقد كان للمزابيين فضل كبير على تعمير هذا الاقليم وزراعة البساتين . غير أن صعوبة العيش دفعت الناس إلى البحث عن موارد أخرى خارج حدود واحاتهم . فعندما يبلغ الصبي أشده يهاجر إلى مناطق التل في الشمال وهي أوفر ماء وأكثر خصباً وأشد غنى ، فيها يزاول أعمال التجارة . وبالجد والمثابرة قد يؤاتيه الحظ فيصبح من الأثرياء . هذا ويقدر عدد الذكور الذين يعيشون في « المهجر » بسدس عدد السكان . ويحتكر المزابيون تجارة البقالة في المدن الجزائرية وهم في ذلك شديدو الشبه بأهل جربة في تونس وبالسوسيين في المغرب . ويسيطر كبار تجارهم على معظم الحلقات التجارية المرتبطة بالبقالة . ولعل ممارسة غالبيتهم لنفس المهنة مما يقوي روح التكاتف الذي يظهر بين الأشخاص المنتسبين إلى نفس المهنة وهو مما يفسّر نجاحهم التجاري . والمزابيون يبقون على علاقاتهم وصلاتهم مع الأهل والقبيلة ولا يتخلون عنها وذلك على الرغم من فترات الغياب الطويلة التي تفرضها عليهم طبيعة التجارة التي يمارسونها . ونادراً ما يصطحبون معهم زوجاتهم إلى حيث يعملون وبذلك تظل هجراتهم مهما طالت موقتة . فيعودون إلى بلادهم من آن إلى آن ، حتى إذا تقدم بهم العمر كانت أرض مزاب هي نهاية المطاف .

والحياة في مدن مزاب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الهجرة وبالنشاط التجاري الذي يمارسه المزابيون مما يتيح لهم فرصة الحصول على الأموال الضرورية للعناية بالواحات وحدائقها ونخيلها ومنازلها ، تلك العناية التي تتطلب نفقات باهظة . وإذا كانت الهجرة عاملاً من عوامل التفكّك والتفرق فهنالك عوامل أخرى قوية مضادة تقاوم هذا الاتجاه ، وتقوي العلاقة المتبادلة بين الفرد وجماعته ، وذلك عن طريق الضغط الذي تفرضه الجماعة على كافة أعضائها ، ثم عن طريق المذهب الديني والغيرة

عليه ، عن طريق العلاقات الاجتماعية المتماسكة لا في مزاب فحسب ولكن حيثما كانوا ، فلا يقطع المهاجرون علاقاتهم بالأهل الذين يخلفونهم وراءهم في الواحة ، وأخيراً عن طريق التزامهم الزواج داخل القبيلة .

ولعل أبرز ما يميز المزابيين عن سواهم هو أنهم استطاعوا الجمع بين صفات تبدو متناقضة قد صبّت في بوتقة واحدة . فقد حقّقوا في بيئة صحراوية مجدبة حياة تجاريـة مثمرة ، تشرف عليها وتدير دفتها جماعة متمسكة تمسكاً قوياً بأهداب الدين ، وترفل في نفس الوقت في حياة حضرية مترفة .

ولمدن مزاب مواضع معينة . فهي تقوم على بروز صخري لحافة هضبة أو على نتوء منعزل عما حوله . وتمتاز الدُور بجودة بنائها وتعدد طوابقها . مساجدها كبيرة تعلوها مآذن شمخاء ، وطرقاتها نظيفة وجميلة تحفّ بها أروقة جانبية مسقوفة . وصفوة القول ان هذه المظاهر الخارجية تدل على طابعها الحضري القوي .

وتحتل غرداية العاصمة مركز الصدارة من حيث حجمها (٢٠,٠٠٠ نسمة) ، ومن حيث أهمية الخدمات الادارية والتجارية والمـالية التي تؤديها . والكثافة السكانية داخل المدينة — كما يستدل عليها من الأرقام — كبيرة ، إذ تتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ نسمة للهكتار الواحد . وهـذه الكثافة العالية تعد من سمات المدن الصحراوية القديمة التي يكتظ فيهـا السكان اكتظاظـاً شديداً على رقعة صغيرة من الأرض .

ومما هو جدير بالذكر ان لأصحاب التجارة من المزابيين صفـات تمثل بعض دعامات نجاحهم التجاري ، من أبرزها القدرة على التكيف مع مختلف الظروف . ففي عصر ازدهار تجارة القوافل نجحوا في تحويل تياراتها الرئيسية إلى إقليمهم . فلما اضمحلت وكادت تنقطع ولوا وجوههم شطر وسائل النقل الحديثة استجابة للتغير الذي شهدته الصحراء ، وعملوا

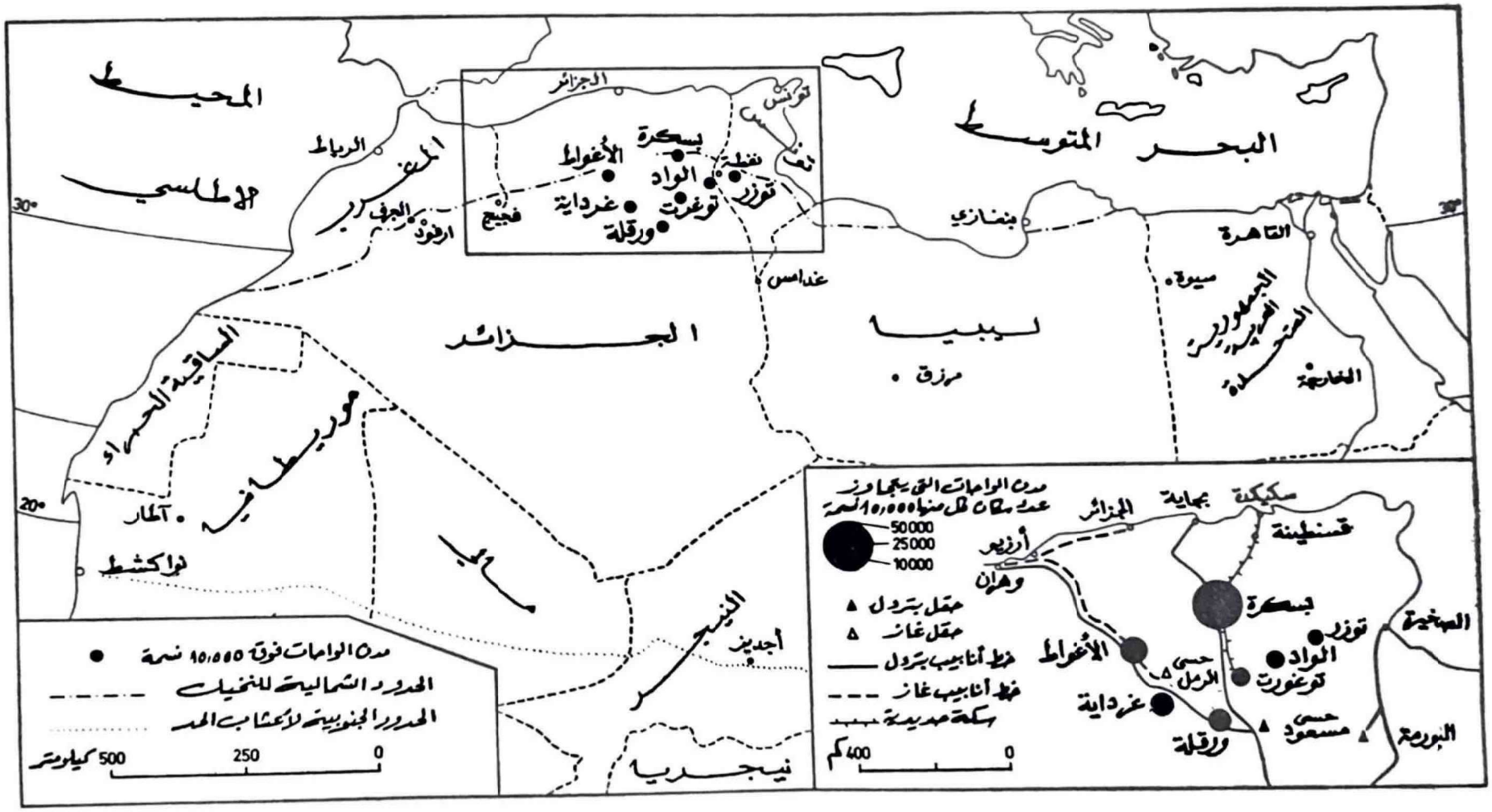
المحيط
الأطلسي
البحر المتوسط
الجزائر
تونس
ليبيا
مصر
موريطانيا
الساقية الحمراء
المغرب
الرباط
الجزائر
العيون
أدرار
تندوف
فجيج
بسكرة
الأغواط
الواد
غرداية
ورقلة
توزر
نفطة
توغرت
غدامس
بنغازي
مرزق
سيوة
القاهرة
الفيوم
الواحات البحرية
الواحات الخارجة
الساقية الحمراء
آطار
نواكشط
أجدير
النيجر
نيجيريا
30°
20°
مدن الواحات فوق ١٥٫٥٥٥ نسمة
الحدود الشمالية للنخيل
الحدود الجنوبية للأعشاب الحد
500 250 0 كيلومتر
مدن الواحات التي يتجاوز عدد سكان كل منها ١٥٫٥٥٥ نسمة
50000
25000
10000
حقل بترول
حقل غاز
خط أنابيب بترول
خط أنابيب غاز
سكة حديدية
400 0 كم
سكيكدة
بجاية
الجزائر
قسنطينة
أرزيو
وهران
بسكرة
الأغواط
توزر
الواد
توغورت
غرداية
ورقلة
حسي الرمل
حسي مسعود
الصحيرة
البورمة

على احتكار حركة النقل وتنظيم خدماتها عبر قسم كبير من الصحراء . بذلك أصبحت غرداية المركز التجاري الرئيسي للصحراء الشمالية الغربية ، مما كان له آثار كبيرة في تقدم العمران بها .

* * *

من ذلك نرى أنه تحقق خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها تقدم حضَري لبعض المراكز الكبيرة التي نمت وازدهرت بفضل تعزيز وظائف قديمة كانت تمارسها أو ظهور وظائف جديدة ألحقت بها . وتمخض ذلك عن اتساع في رقعتها وتخصص في أحيائها . فإلى جانب القصور القديمة وتوابعها الحديدة التي تدور في فلكها ظهرت أحياء للادارة بمبانيهـا الكبيرة ، وأخرى للتجارة بحوانيتها ومخازنها وشوارعها الغاصة بالغادين والرائحين ، وثالثة للسكن الأوروبي « بڤيلاتها » الأنيقة . وتمتاز هذه الأحياء الأخيرة بطرقاتها العريضة المستقيمة ، وبساحاتها المتسعة . وتشغل من أجل ذلك مساحة كبيرة بالقياس إلى العدد القليل لساكنيها . ويسوقنا هذا إلى تقرير الحقيقة الآتية وهي أن تخطيط المدن الصحراوية في تلك الآونة لم يراع فيه الاختلاف بين الاحياء من ناحية الوظيفة فحسب ولكن أيضاً من حيث الناحية الاجتماعية والعنصرية . ونوعية الاحياء على هذه الصورة ظاهرة عامة في مدن الشمال الأفريقي والشرقين الأوسط والأقصى وبعض مدن الأمريكتين . على أن هذه النوعية أكثر وضوحاً في المدن الصحراوية التي عرفت الاستعمار .

نخلص من ذلك إلى أن المدن الواحية الكبيرة التي أشرنا اليها ازداد حجمها ونما عدد سكانها نمواً كبيراً خلال هذه الفترة . وعندما نحاول تقصي أسباب هذه الزيادة الديموغرافية نجدها ترجع إلى عوامل ثلاثة : أولها التكاثر الطبيعي للسكان والذي يقصد به زيادة عدد المواليد على عدد

الوفيات . وثانيها مهاجرة القرويين من أهالي الواحات ونزوحهم من البوادي إلى المراكز الحضرية . أما العامل الثالث فهو استقرار البدو الذي استفحل أمره طوال هذه الفترة على إثر القيود التي فرضت عليهم في تنقلاتهم الرعوية ، وكذلك انقطاع احتكارهم لتجارة القوافل وحراستها بعد تدهورها .

ومن نماذج استقرار البدو التي تستحق الذكر استقرار جماعات المخادمة . تقع مواطن المخادمة بالقرب من واحات ورقلة إلى الشمال الغربي والغرب والجنوب الغربي منها . ويبلغ عدد أفرادها قرابة ٥٠٠٠ شخص . ونظام الحياة لديهم كان يستند حتى عهد قريب إلى البداوة والانتقال من مكان إلى آخر ، وكانت جماعاتهم تصل في تجوالها إلى مسافات تتجاوز أحياناً ٤٠٠ كيلومتر من ورقلة مكان تجمعهم الرئيسي . وقد اضطروا تحت ضغط الظروف السياسية والاقتصادية التي أشرنا اليها آنفاً إلى التقليل من اقتنائهم للحيوان ، وإلى الحد من حركاتهم ، بينما طالت فترات إقامتهم شتاء في خيامهم تحت أسوار المدينة . وقديماً كانت لهم بعض الدور في المدينة يستخدمونها صوامع للغلال ومستودعات . فلما طالت فترات مكثهم بالقرب من الواحة وازدادت حاجياتهم اليومية شيدوا عدداً من المستودعات بالقرب من مضارب خيامهم ، ثم لم يلبثوا أن بنوا منازل من حول هذه المستودعات وبذلك انتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى الدور المبنية . وتقوم هذه الدور حالياً متفرقة بين أشجار النخيل إلى الجنوب الغربي من واحة ورقلة . وقد كان لدق الآبار الارتوازية منذ عشرين عاماً تقريباً أثر لا يستهان به في استقرار المخادمة . على أن هذا التحول عن حياة البداوة ازدادت سرعته ابتداء من عام ١٩٥٦ نتيجة لاكتشاف البترول والغاز الطبيعي وما صاحبهما من طلب متزايد على الأيدي العاملة .

إن المقام لا يتسع لأن نطيل الكلام عن المخادمة وحسبنا أن نختم الحديث عنهم بالاشارة إلى نسبة من احتفظ منهم بحياة البداوة . إنها لا تتجاوز ٥ بالمئة من المجموع ، فضلاً عن أن التنقلات الرعوية لم تعد تنقلات جماعية كبيرة في أوقات منتظمة ، بل تفككت وانقسمت إلى وحدات صغيرة ، تنقلاتها غير منتظمة ولمسافات قصيرة . وهكذا تحولت الغالبية العظمى من المخادمة (٩٥ بالمئة) إلى مختلف أنواع النشاط الفلاحي والتجاري والعسكري . على أن النشاط الصناعي في المراكز البترولية أخيراً يستأثر بكثرتهم .

ومما لا ريب فيه أن نزوح الناس من البوادي ومن البادية إلى المدينة ترتبت عليه آثار اجتماعية لها خطرها . فالقصر القديم يؤلف وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية كما يؤلف وحدة قرابية . ولا نكاد نجد مثل هذه العلاقات والأواصر القرابية تتعدى حدود قصر إلى قصور أخرى إلا فيما ندر . أما المدينة الواحية الكبيرة فقد أصبحت تحمي أناساً من مختلف القصور ومن البوادي والبادية ، قدموا اليها من منابت جغرافية وقبلية مختلفة مما أضعف الصلات القرابية نوعاً . فبينما ظل القصر القديم محتفظاً بصلة القبيلة والرحم نرى المجتمع الحضري في إطاره الحديد أخذ يصوغ صياغة جديدة أسس العلاقات التي تربط بين أعضائه .

* * *

لقد آن الوقت لنقرر أن قوة جاذبية المدن الكبيرة التي احتكرت أو كادت الوظائف الحضرية والنمو الديموغرافي عاقت نمو المراكز الصغيرة . فالنشاط التجاري أفاد من وجود الوظيفة الادارية والسياسية في المدن الكبيرة التي يقدم اليها الأشخاص من مختلف النواحي التابعة لها لتسوية مشكلاتهم الادارية والقضائية . وهم إذ يقومون بذلك ينتهزون فرصة وجودهم في المدينة لشراء بعض حاجياتهم من أسواقها ومتاجرها . ومما

ساعد على ذلك وسائل المواصلات الحديثة التي أتاحت نقل الناس والسلع بسرعة من وإلى المدينة الكبير وتركيز تجارة الجملة فيها . وكل ذلك أضعف من اتصال القرى القديمة بالصحراء وبالعالم الخارجي إلا إذا كان هذا الاتصال عن طريق المدينة الرئيسية .

وفي هذا المجال تنبغي الاشارة إلى هذه المراكز التي كان يمكن أن ترقى إلى مرتبة المدينة ولكنها فشلت في ذلك . ولنضرب لذلك مثلاً مدينة فجيج في المغرب . تقع واحات فجيج في أقصى الجنوب الشرقي من البلاد ملاصقة للحدود مع الجزائر حتى صح عليها القول بأنها نهاية العالم . ومما لا شك فيه أن مثل هذا الموقع المتطرف لا يساعد كثيراً على النمو الحضري . إلا أنه من الحق ألا نتجاهل أن فجيج مزودة بمركز إداري كبير ، كما أن بالواحة بورجوازية صغيرة تمارس التجارة وبعض الصناعات التقليدية وأمور التعليم . وكل ذلك كان يمكن أن يصلح كدعائم للنمو الحضري .

وأهم شيء يسترعي انتباه الباحث هو هجرة سكان فجيج بأعداد متزايدة . وقد كانت هذه الهجرة في الماضي موقتة ، وكان المهاجرون يعودون إلى موطنهم في فصل الخريف للقيام بالأعمال الفلاحية . ومنذ الحرب العالمية الثانية أصبحت الهجرة شبه دائمة . ولم تعد تقتصر على الذكور كما هي الحال في مزاب ، فضلاً أن معظم المهاجرين يتحولون إلى عمال سواء أكان ذلك في مراكز التعدين القريبة من فجيج في المغرب الشرقي أم في أوروبا وعلى وجه الخصوص في فرنسا . وبسبب هجرة العناصر العاملة النشيطة أدرك التدهور حقول الواحة ، كما أن بعض المهن والحرف اختفت بعد أن رحل الكثير من أصحابها سعياً وراء الرزق في مكان آخر . ويبلغ عدد سكان فجيج ١٢,٠٠٠ نسمة وهذا العدد في تناقص . وتكاد تكون فجيج قرية أكثر منها مدينة ، وقصتها في الواقع

هي قصة مركز حضري قد نضب معين تقدمه .

وهناك على عكس ذلك تجمعات قروية أخذت تشيع فيها المظاهر الحضرية ، وقد لا يمضي عليها وقت طويل حتى ترقى إلى مراتب المدن . ومن أمثلة ذلك قصر الحرف في اقليم تافيلالت بجنوب المغرب . فعلى الرغم من الوفرة السكانية في واحات تافيلالت فان الحياة الحضرية فيها تكاد تقتصر على ارفود (٥٠٠٠ نسمة) وهي مدينة حديثة خلقت خلقاً حوالى سنة ١٩٢٥ لتكون المركز الاداري الرئيسي للاقليم . ومن القصور ما يتجاوز عدد سكانه ١٠,٠٠٠ نسمة ، وقرية الحرف يبلغ عدد سكانها قرابة ١٥,٠٠٠ نسمة . وهي ليست قصراً واحداً ، ولكنها عبارة عن ثلاثين أو أربعين قصراً التحمت ببعضها فبدت قريبة كبيرة ضخمة . ومن أهم ظاهرات التطور الحالي اقتراب عالم البادية من عالم الحضر فيها وتعدد أنواع النشاط التجاري ومختلف الخدمات المرتبطة بالقطاع الثالث ، وذلك لسد حاجيات السكان المتزايدة ولا سيما بعد انتشار التعليم بين أبنائها .

٥ ـ الوظائف الجديدة

البترول والغاز :

حسبنا ما تقدم من شرح للدور الذي لعبه الاستعمار الأوروبي وأهميته في الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية . وننتقل الآن إلى الحديث عن التغيرات الاقتصادية التي طرأت على الحياة الحضرية كنتيجة لاستنباط البترول . إن الاكتشافات الحديثة لحقول البترول والغاز الطبيعي جعلت الصحراء تدخل في مجال اقتصادي من نوع حديث . وقد تأثرت مدن الواحات تأثراً إيجابياً عميقاً بهذا النشاط ، وذلك عندما تقع المدينة على مقربة من أماكن التنقيب عن البترول أو من أحواض استخراجه . بل

إن مجرد وجود المدينة على خطوط الطرق التي تسلكها أنابيب البترول أو الغاز إلى موانئ التصدير كان من دوافع النمو الحضري .

إن امتداد استنباط البترول إلى الصحراء أدى إلى تدفق شديد لأفواج المهاجرين إلى المراكز البترولية طمعاً في تحقيق مستوى أرفع من الناحية الاقتصادية . وشارك في هذه الهجرة سكان الواحات والبدو على حد سواء . وأخطر مشكلة اقترنت بهذه الهجرة كانت اختلال التوازن في سوق الأيدي العاملة في صالح الاقتصاد الحديث وعلى حساب أنواع النشاط التقليدية من فلاحة في الواحات أو حياة رعوية بدوية والتي يعيش أصحابها عادة في ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة . وهكذا فتح اكتشاف البترول أمام سكان الصحراء أبواباً واسعة لحياة أوفر رغداً وأكثر رخاء . وقد جعل النشاط الحديد أهمية كبيرة للاقتصاد النقدي . وبديهي أن الأجور المرتفعة والمنتظمة أدت إلى زيادة الطلب على المواد الاستهلاكية وبالتالي إلى زيادة المبادلات التجارية ، وعاد ذلك على المدن الواحية الكبيرة ولا سيما الأغواط وتوغرت وورقلة بالخير العميم .

فمدينة الأغواط أصبحت مركزاً لاقليم حسي الرمل الغني بالغاز الطبيعي ، وتقع مناطق استخراجه على مسافة مائة كيلومتر جنوب شرقي المدينة . أما توغرت فقد أضيفت إلى وظائفها المتعددة وظيفة بترولية وذلك منذ انشاء محطة ضخ لخط أنابيب البترول الذي يصل حقول بترول حسي مسعود بميناء أرزيو على البحر المتوسط . وامتدت رقعة المدينة بعد أن قامت أحياء جديدة غربي المدينة مقتربة من الطريق الذي يصلها بمحطة ضخ البترول .

وتعتبر ورقلة مثلاً للمدينة التي ازدهرت بسبب تقدم الصناعة البترولية . غير أن تقدم المدينة لا يعزى إلى البترول وحده . فقد ارتبطت نهضة المدينة بادئ ذي بدء بالتوسع في زراعة الحقول والبساتين وبازدياد أهميتها

كسوق كبيرة لسكان القرى وللبدو الرحّل نتيجة لتعزيز وظيفتها الادارية . ثم تلا ذلك مرحلة التنقيب عن البترول وعمليات استخراجه . وفيها خطت المدينة في تقدمها خطوات واسعة . ذلك أنها لا تبعد بأكثر من ٧٠ كيلومتراً من آبار حسي مسعود مما جعلها ملاذاً ومدينة ترفيهية يأوى إلى مروجها الخضر وظلها الظليل من آن إلى آن المشتغلون باستخراج البترول . وللمدينة موقع ممتاز يتوسط طرق المواصلات مما عزز وظائفها الادارية وأكسبها أهمية كبرى . فلا غرو ان اختارتها السلطات عام ١٩٥٩ عاصمة لعمالة الواحات بدلاً من الأغواط التي تشغل مركزاً متطرفاً في خريطة المواصلات .

هذا ويقع القصر القديم على تل يتوسط الواحة ، طرقاته ضيقة ملتوية ومغطاة جزئياً . على أن القصر لم يعد يقوى على استيعاب كل سكانه نظراً للزيادة المطردة في أعدادهم ، ومن ثم بدأت تظهر المساكن خارج الأسوار . وفي نفس الوقت امتدت الأحياء العصرية إلى الجنوب الغربي بعيداً عن النخيل حتى لا تطغى مبانيها على الأرض الزراعية ، مكونة مدينة حديثة متطورة ، تتجمع فيها مختلف المباني الادارية والفنادق ودور السينما والمحلات التجارية من كل نوع . وقد أدى انشاء مينائها الجوي ومحطتها النموذجية لسيارات النقل إلى أن أصبحت ورقلة مركزاً رئيسياً للمواصلات صوب الجنوب والجنوب الشرقي ونحو منطقة الهقار والسودان ، وأخيراً إلى حوض بترول عجيلة بالقرب من الحدود الليبية .

بديهي أن هذه المدن الثلاث — الأغواط وتوغرت وورقلة — لم تكن لتزدهر ويتقدم فيها العمران على هذا النحو لو أن نشاطها اعتمد فقط على موارد واحاتها وما يتصل بهذه الموارد من مبادلات تجارية محدودة . على أنه لا بدّ من أن نقرر أيضاً أن ازدهار هذه المدن اقترن بتقهقر

للفلاحة ولأهميتها الاقتصادية . فاكتشاف البترول واستغلاله أديا إلى حالة من حالات الاضطراب وفقدان التوازن نجمت عن الانتقال من نمط اقتصادي تقليدي إلى اقتصاد يقوم على أسس حديثة عصرية .

ويجدر بنا الآن أن نعيد النظر في حالة آجدز (في النيجر) . فقد سبق أن أشرنا إلى أنها مدينة اعتورها الاضمحلال نتيجة تدهور تجارة القوافل . على أن هنالك بريق أمل في إحياء المدينة بعد اكتشاف ساحات واسعة من الصخور التي تتضمن مركبات الأورانيوم في منطقة آرليت التي لا تبعد عنها بأكثر من مائتي كيلومتر . والمفروض أن تقوم مدينة معدنية تضم بضع مئات من الأوروبيين وبضع آلاف من الأفريقيين . ونظراً إلى أن المحتوى المعدني لخامات الأورانيوم ضعيف فسيصبح تعزيزه محلياً أمراً ضرورياً بغية تحاشي نقل الخامات الثقيلة مسافات بعيدة . ولابد أن سيكون لوجود هذا المركز التعديني أثر طيب على مستقبل مدينة آجدز .

السياحة :

من بين الوظائف الرئيسية التي ظهرت في المدن – وكانت أيضاً خلاقة لبعضها – الوظيفة السياحية ، وهي مظهر حديث من مظاهر مدنيتنا المعاصرة سجل تقدماً كبيراً في السنوات الأخيرة ، علاوة على أن السياحة تشكل قطاعاً اقتصادياً غير هين بالنسبة لكثير من الدول . وقد تناولت الحركة السياحية ، فيما تناولت من أقطار ، الصحراء . وليس غريباً أن يدب فيها هذا النشاط . فالصحراء تأسر مرتاديها بآفاقها الواسعة العريضة ، وبفضل ما لها من روعة ورهبة ، ومن جمال وجلال . والوظيفة السياحية ليست بالضرورة وظيفة حضرية . ولكن في الصحارى يصعب تصور قيامها خارج الواحات . ومن ثم كانت المدن الواحية مهيأة

لأن تصبح مراكز سياحية لا سيما وأنها تمتاز بوجود بعض المرافق الحضرية الضرورية كشبكة المياه التي تؤمن حاجة سكان المدينة من مياه الشرب وشبكة المجاري التي تجمع المياه المبتذلة وتسحبها إلى منطقة بعيدة عن المدينة وتصرفها بطريقة صحية ، وشبكة التيار الكهربائي للانارة ... وكل ذلك يجعل عملية التجهيز السياحي في هذه المدن أقرب منالاً وأيسر سبيلا منه في أي جهة أخرى .

وقد أخذت بعض الحكومات التي لها نصيب في الصحراء في بذل كثير من الجهد والعناية بشؤون السياحة . ففي المغرب مثلاً وضع التصميم الثلاثي للسنوات ١٩٦٥ و ١٩٦٦ و١٩٦٧ السياحة بين أهدافه الأربعة الرئيسية . كذلك ترصد الجزائر وتونس وليبيا مبالغ كبيرة من ميزانيتها لبناء الفنادق والمنشآت السياحية المختلفة . ولئن كان صحيحاً أن المناطق الصحراوية في هذه الأقطار لا تستأثر بكل هذه المبالغ إلا أن نصيبها منها لا يستهان به . على أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا المجال هو إلى أي حد يعتبر التوسع السياحي في الصحراء عملية مربحة للدولة من الناحية الاقتصادية . ذلك ان هذا التوسع تقابله هنا صعوبات وعقبات تجهل الأقاليم الأخرى الكثير منها . فكل شيء يدل على أن النهضة السياحية في الصحراء تعتمد على الاعانات التي تمنحها الدولة بسخاء لتيسير أسباب المواصلات الجوية وتعبيد الطرق وصيانتها وبناء الفنادق والقيام بأعمال دعائمية أولية لا معدى من القيام بها كتوصيل التيار الكهربائي إلى المنشآت السياحية وتزويدها بالمياه وذلك في جهات كثيراً ما تكون محرومة من هذه الدعائم الأولية . ومن جهة أخرى فان الفصل السياحي في الصحراء يتميز بقصره ويكاد ينحصر في فترات العطلات الشتوية والربيعية . فابتداء من مايو حتى أواخر سبتمبر ترتفع درجة الحرارة وتشتد حَمَارّة القيظ ، ولا يرتاح الناس إلى ارتياد الصحراء آنذاك . ويترتب على ذلك أن ينخفض معامل استخدام الطاقة الاسكانية

للفنادق أي أن يقل عـدد الأيام التي تصبح فيهـا الفنادق عـامرة بالسياح .

ومع ذلك لا بدّ من التسليم بأن الجانب الايجابي لهذا النشاط لا يمكن تجاهله . وآية ذلك أن طاقة الفنادق في نمو مستمر في كل جهة بينما الحركة السياحية تسجل تقدماً مطرداً حتى لم تعد أشهر الصيف بخالية من أفواج السياح .

وهنالك خاصة من خواص الواحات متصلة بالسياحة نشير اليها إشارة وجيزة وهي أن ذلك النشاط لا يقوم مستقلاً بذاته ولذاته ، ولكنه مرتبط بالمراكز السياحية الكبيرة التي تقع على حدود الصحراء . وتلعب هذه المراكز دوراً مهماً كحلقة وصل بين العالم الخارجي وعالم الواحات . ففي جنوب القطر المغربي مثلاً توجد مدن تتمتع بشهرة سياحية عالمية وتتوافر على فنادق متنوعة المراتب والدرجات ، ومن أبرزها مراكش وأكادير ، وتعتبر نقط الارتكاز الرئيسية منها تبدأ الرحلة — وما أبهجها إن اعتدل الجو ورق الهواء — إلى وارزازات وزاجورة وارفود .... وغيرها من المدن الصحراوية التي أصبحت مقصد السياح وموئل الزوار يفدون عليها من أقاصي المعمورة .

وأخيراً يمكننا أن نتساءل عن القيمة الفعلية للسياحة كعامل من عوامل التنمية الاقتصادية والنهوض بالواحات ومدنها . إذا استثنينا المدن الواحية التي مسها الاقتصاد البترولي أو التي أحيتها الوظائف الادارية والتجارية مما سبقت الاشارة اليه فان الغالبية العظمى من مراكز تجمع السكان لا نستطيع اعتبارها مدناً صريحة على الرغم من أن عدد سكانها قد يصل إلى أكثر من عدة آلاف نسمة . وإذا أنعمنا النظر في بعض هـذه المجتمعات ذات المسحة الحَضَرية أدركنا أن هذه المسحة تولدت من أن هذه المراكز في الواقع قد أضحت العضو الوحيد الحي في جسم الواحة

الذي دب فيه الخمول . ومن ثم كانت الأعمال المرتبطة بالتوسع السياحي من شق الطرق وبناء الفنادق مما يساعد – ولو بصفة موقتة – على امتصاص العاطلين ، فضلاً عن أن السياحة يمكن أن تؤدي إلى استعادة الصناعات التقليدية المحلية لبعض – إن لم يكن كل – نشاطها القديم . وبمقتضى ذلك تزداد موارد السكان . كذلك قد تكون السياحة حافزاً على أن تجد المنتجات الزراعية المحلية سوقاً رائجة لا ترتكز فقط على التوسع الحضري ونمو المدن في الواحات نفسها ولكن أيضاً على الأسواق البعيدة بفضل التقدم الذي طرأ على وسائل النقل .

لا مراء إذن في أن السياحة تكوِّن بارقة أمل لازدهار الحياة في الصحراء . وبصرف النظر عما إذا كان التوسع السياحي فيها يشكل عملية اقتصادية مربحة فانه أداة من أدوات اخراج الصحراء من عزلتها وإشاعة التعمير فيها .

* * *

بسكرة :

لما كانت بسكرة أكبر مدن الواحات في الصحراء وأعظمها شأناً رأينا أن نفرد لها فقرة خاصة في هذا البحث ، ذلك أن المدينة تكاد تلخص كافة الوظائف التي نجدها متفرقة في المدن الواحية الأخرى حتى أصبحت بسكرة ميزاناً لوزن هذه الوظائف .

تحتل المدينة موقعاً ممتازاً عند نهاية منخفض ينفتح بين جبال أوراس من ناحية وأطلس الصحراء من ناحية أخرى . وقد كان هذا المنخفض على ممر العصور منطقة ارتباط مهمة جداً بين الاقاليم الصحراوية في الجنوب من جهة وبلدان البحر المتوسط شمالاً من جهة أخرى . ولذلك

لم تكن صدفة أن نجد الوظيفة الحربية في أصول المدينة . فقد كانت حلقة من حلقات خط الدفاع الأمامي للامبراطورية الرومانية . وبعد أن توارت هذه الوظيفة ردحاً من الزمن عادت إلى الظهور أيام العثمانيين والاحتلال الفرنسي حين أصبحت مدينة ترابط فيها حامية عسكرية كبيرة .

أما وظائفها التجارية والاقتصادية فتستند إلى الموقع والموضع . فبسكرة هي السوق الكبيرة والمركز الرئيسي لبلاد زيبان ، وهو إقليم غني بواحاته ، يقع في حضيض جبال الأطلس حيث يمتد منخفض عظيم تنتظم فيه مجموعات من الواحات الكبيرة الآهلة بالسكان ، الغنية بالنخيل وأشجار الفاكهة . وقد جذب موضع المدينة طرق المواصلات الرئيسية فأصبحت سهلة الاتصال بالعاصمة الجزائر بواسطة كل من الطريق البري وخط السكة الحديدية . كما أنها أصبحت قطب تجمع الطرق والمسارب الصحراوية التي تخرج منها لجميع الاتجاهات تقريباً . وأخيراً فان المدينة تقع على خط السكة الحديدية الذي يربط توغرت في الجنوب بقسنطينة في الشمال . هذا وتتمتع بسكرة بمركز القيادة في بلاد زيبان . وقد قامت بها مدينة حديثة تمتد مبانيها إلى الشمال من الواحة ونخيلها ، ويتركز فيها النشاط الاداري والتجاري .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تشهد المدينة ظهور وظيفة جديدة تنضم إلى وظائفها الأخرى ، ألا وهي الوظيفة السياحية . ولا يمضي وقت طويل على ذلك حتى تزدهر هذه الوظيفة وتبنى من أجلها فنادق فخمة يؤمها الأثرياء من السياح وبوجه خاص البريطانيون بحثاً عن الشمس وعن الدفء . وقد تضافرت عدة عوامل كي تحتل بسكرة مكانة مرموقة في عالم السياحة من أهمها سهولة المواصلات اليها ، وموقعها عند مدخل الصحراء وبالقرب من جبال أوراس ذات المناظر الخلابة ، ثم صفاء

سمائها واعتدال حرارتها شتاء . وينبغي أن نذكر أنه أتى على هذه الوظيفة حين من الدهر خبت فيه جذوتها . على أن النهضة السياحية الحديدة والرغبة في الكشف عن آفاق جديدة غير مألوفة جعل الصحراء تجذب اليها السياح من جديد . وأخيراً فان المدينة تُسْهم بنصيب في النشاط البترولي ولو أن ذلك بطريقة غير مباشرة . فبسكرة تقع على ممر رئيسي يربط أقاليم البحر المتوسط بالصحراء المعدنية ، ويسلك الطريق البري وخط السكة الحديدية . ثم إن المدينة محطة رئيسية لخط الانابيب الذي ينقل البترول منذ عام ١٩٥٨ من حوض حسي مسعود إلى بجاية .

٦ ـ خاتمة

تكشف لنا الدراسة الجغرافية للمدن الواحية الكبيرة عن تغير جوهري طرأ على الحياة الحضرية في السنوات الأخيرة ، ويتمثل في تعدد وظائفها وازدياد عدد سكانها واتساع رقعتها . فحتى عهد قريب كانت معظم التجمعات في الواحات أقرب إلى القرى منها إلى المدن . ويرجع ذلك إلى أن أهم ما يميز مدن الواحات عن سواها هو تداخل الوظائف الحضرية والقروية فيها تداخلاً كبيراً . وظلت المدينة التقليدية الكبيرة خلال عصور مديدة مركزاً إقليمياً لسكان الواحات من المستقرين وقطباً للجاذبية للبدو الرحل .

وقد صاحبت الفترة الاستعمارية ظاهرتان قد تبدوان لأول وهلة متناقضتين ولو أنهما في الواقع متكاملتان . فنلاحظ أولاً أن الكثير من هذه المراكز أصابه الاضمحلال على أثر انقطاع تجارة القوافل وتحريم الرقيق . وبتدهور المبادلات التجارية تدهورت بعض الحرف والصناعات

التقليدية نظراً لضعف القوة الشرائية لدى سواد الجماهير في الواحات . على أن بعض المراكز ولا سيما الكبيرة أضيفت إلى وظائفها القروية وظائف جديدة حربية وإدارية وتجارية مما أدى إلى نموها وازدهارها .

ولكن الدفعة الحضرية الكبرى للمدن الرئيسية تؤرخ باستكشاف البترول والغاز واستغلالهما . وارتبط ذلك بظهور اقتصاد حديث قام فيه النقد مقام المقايضة فزاد التبادل وعمرت الأسواق . ذلك أن تدفق البترول في الصحراء ساعد على خلق مجالات للعمل في حقول البترول من جهة وفي المدن لخدمة العاملين في هذا النشاط من جهة أخرى . وكان لا بُدّ للمدينة من أن تتجاوب تجاوباً فعلياً مع الاقتصاد الجديد وحاجات السكان ومتطلباتهم وإقبالهم على السلع الاستهلاكية . فازداد عدد التجار وأصحاب الحرف المختلفة ، كما نمَت مختلف الخدمات من بنوك ومكاتب بريد وشركات نقل ... وكان لكل ذلك أبعد الأثر في اطراد نمو المدن بسرعة غير مألوفة خلال حقبة قصيرة من الزمن . ونحن إذ نشير إلى هذا النشاط الذي يستند على الطلب المتزايد للأيدي العاملة ينبغي ألا نغفل أن هذه الحاجة الكبيرة إلى الأيدي العاملة من طبيعة عمليات الانتاج البترولي في مراحله الاولى . فإذا ما وصلت آبار البترول إلى أوج انتاجها قلّت الحاجة إلى الأيدي العاملة غير المتخصصة . هذا ومن أوجه النشاط الاقتصادي الحديث في مدن الواحات السياحة ، وهي تكون مصدراً جديداً للثروة .

ومن أخطر المشكلات المرتبطة بالطلب المتزايد على الأيدي العاملة في القطاع الاقتصادي الحديث هو من غير شك حرمان الفلاحة الواحية من عناصرها العاملة التي أخذت تتدفق نحو مراكز انتاج البترول والتنقيب عنه أو صوب المدن . فسكان الواحات أصبحوا يضيقون بواحاتهم وبالعمل المضني الذي لا يؤمّن العيش – بصرف النظر عن العيش

الكريم – لهم ولذويهم ، حتى أن الأجور التي يتقاضونها في مراكز العمل الحديدة – مهما كانت ضئيلة – فهي بالقياس إلى ما يجنيه المزارعون كبيرة . وقد نجم عن نزوح الأيدي العاملة من الواحات أن انكمشت الرقعة المنزرعة وعلى الأخص في الجهات التي لا يعتمد فيها الري على مياه الآبار الارتوازية . ففي واحات فزان تقلصت المساحات المنزرعة إلى ثلث ما كانت عليه منذ خمسة عشر عاماً تقريباً . بل إن من الواحات ما أصبح قاعاً صفصفاً بعد أن هجرها أهلوها وتخلوا عن حدائقها وبساتينها كواحات وادي الشاطئ التي أصبحت تنساب فيها المياه وتفقد دون استغلال لها .

وتجابه الواحات مشكلات اقتصادية واجتماعية على درجة كبيرة من التعقيد ليس هنا هذه المرة مجال الحديث عنها . ومن رأينا أنه من الخطأ محاولة الابقاء بكل الوسائل على اقتصاديات الواحات في صورتها الراهنة . صحيح أن الواحات أمدت سكانها خلال عصور طويلة بمجموعة تكاد تكون كاملة من الموارد ، وذلك عن طريق انتاج يعتمد على الاكتفاء الذاتي . ومن الواضح أن هذا الشكل من الاقتصاد عفى عليه الزمن ، نتيجة للتغير الحضاري الذي طرأ على هذه الجهات ، ونتيجة لتغير مفهوم الثروة ومفهوم العمل فيها عما كان عليه منذ سنين قليلة خلت ، ولعل أفضل وسيلة لعلاج أزمة الواحات هو قبول التطور الحالي والعمل على توجيه اقتصادياتها ومنتجاتها بما يتجاوب مع الحاجيات الجديدة والاقتصاد الحديث .

حسان عوض

قائمة ببعض المراجع الرئيسية

ARBUZ, G. 1966. La situation économique de Djanet en 1965, Trav. de l'Institut de Rech. Sah. Alger, T. XXV, p. 105-127.

BATAILLON, C. 1955. Le Souf, Etude de géographie humaine, Alger, 140 p. (Mém. N° 2, Inst. de Rech. Sahariennes).

BONNEFOUS, M. 1952. La palmeraie de Figguig, Rabat, 80 p. (Service Central des Statistiques).

CAPOT-REY, 1952. Le Sahara français, Paris, P.U.F., 564 p.

1960 CENSUS OF AGRICULTURE, 1962. Reports and Tables, Tripoli (Ministry of Agriculture).

DESPOIS, J. 1965. Problèmes techniques, économiques et sociaux des oasis sahariennes Rev. Tunisienne de Sciences Sociales, N° 2, p. 5.31

DESPOIS, J. & RAYNAL, R. 1967. L'Afrique du Nord-Ouest, Paris, Payot, 570p.

EYDOUX, H-P. 1943. L'Homme et le Sahara, Paris, Gallimard, 207 p.

GAUTIER, E-F. 1928. Le Sahara, Paris, Payot, 227 p.

GEOFFRY, F. 1966. The Lands of Barbary, London, John Muray, 227 p.

HARRISSON, R. 1967. Migrants in the City of Tripoli, Libya, Geogr. Rev, Vol. LVII, N° 3, p. 397-423.

KERVAN, L. 1960. L'expansion d'Ouargla, Industries et Travaux d'Outre-Mer N° 84, p. 757-761.

MARTHELOT, P. 1965. La révolution du pétrole dans un pays insuffisamment développé, la Libye, Les Cahiers d'Outre-Mer, N° 69, p. 5-31.

MENNESSON, E. 1965. Ksour du Tafilalt, Rev. de Géogr. du Maroc, N° 8, p. 87-92.

TROIN, J.F. 1967. Aspects géographiques de l'expansion du tourisme au Maroc, Rev. de Géogr. du Maroc, N° XI, p. 39-66

محيي الدين صابر ولويس كامل مليكه ١٩٦٦ . البدو والبداوة ، مفاهيم ومناهج . مركز تنمية المجتمع العربي ، سرس الليان ، ١٧٠ ص .